تحقيقَ التوحيدِ وإفرادُ اللهِ بالعبادة، والتحذيرُ من الغلوِّ في القبورِ والاستغاثةِ بالأموات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، أحمده سبحانه وأشكره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادةً تقوم بها الحجة وتندفع بها الشبهة، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن أعظم ما بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، هو تحقيق توحيده سبحانه، وإفراده بالعبادة، وقطع كل سبب يفضي إلى الشرك به جلّ وعلا، قال تعالى: {وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ} [النحل: 36]، فدلّ ذلك على أن أصل الدين وأساسه الذي لا يقوم إلا به، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، والبراءة من الشرك وأهله.

وإن من أعظم أبواب الشرك التي حذّر منها الوحي، وسدّ طرقها، بابُ تعظيم القبور، والغلو في الصالحين، وصرف شيء من العبادة لهم، دعاءً واستغاثةً وطلبًا للحاجات، فإن الدعاء عبادة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((الدعاء هو العبادة)) (رواه الترمذي)، فكل من صرفه لغير الله فقد أشرك، سواء سمّى ذلك توسّلًا أو تبركًا أو غير ذلك من الألفاظ التي لا تغيّر الحقائق.

وقد بيّن الله سبحانه حقيقة هذا المسلك، وأنه هو عين ما كان عليه المشركون الأولون، فقال جلّ شأنه: {مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ} [الزمر: 3]، فاحتجوا بالتوسّط والتقرّب، ولم يزعموا أن آلهتهم تخلق أو ترزق، ومع ذلك حكم الله عليهم بالشرك والكفر، لأنهم صرفوا نوعًا من العبادة لغيره.

وقال تعالى: {إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ} [فاطر: 14]، فسمّى دعاءهم للأموات شركًا صريحًا، وهذا نصّ قاطع لا يحتمل التأويل, وهي آية محكمة قاطعة في الدلالة والحجة.

وقد كان السلف الصالح على هذا الأصل العظيم، يحذّرون من الغلو في القبور، ويمنعون كل ما يفضي إلى الشرك، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: [اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كُفيتم] , (رواه الدارمي في سننه)، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: [إنما هلك من كان قبلكم باتباعهم آثار أنبيائهم واتخاذهم قبورهم مساجد] , (أصله في الصحيحين من حديث عائشة).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: [وأما من يأتي إلى قبر نبي أو صالح فيدعو الله عنده، أو يدعوه هو، فهذا منهي عنه باتفاق الأئمة، وهو من ذرائع الشرك، بل قد يكون شركًا أكبر إذا دعا الميت نفسه] ,(مجموع الفتاوى 27/72)، وقال أيضًا رحمه الله: [من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم ويتوكل عليهم، كفر إجماعًا] (مجموع الفتاوى 1/124).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: [فمن أعظم الشرك أن يستغيث بغير الله، أو يدعو غيره، أو يطلب منه ما لا يقدر عليه إلا الله] (مدارج السالكين 1/353).

فهذه النصوص المحكمة من الكتاب والسنة، وكلام أئمة الإسلام، تدل دلالة قاطعة على أن دعاء الأموات، والاستغاثة بهم، والطواف بقبورهم، والتقرب إليهم بالعبادات، كل ذلك من الشرك الأكبر المنافي لأصل التوحيد، مهما زيّنه المزيّنون، أو غيّروا اسمه.

وأما التوسّل المشروع، فقد دلّ عليه الشرع، وهو محصور في أمور معلومة: التوسل إلى الله بأسمائه وصفاته، وبالأعمال الصالحة، وبدعاء الرجل الصالح الحي الحاضر، كما في حديث الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى الغار، فتوسّلوا بأعمالهم، ففرّج الله عنهم (متفق عليه).

فهذا هو الميزان الشرعي الذي يجب الرجوع إليه، لا الأذواق ولا الأعراف ولا ما اعتاده الناس.

وإن مما يُبتلى به الناس في أزمنة الفتن، أن تُزيَّن لهم هذه المظاهر الشركية باسم المحبة والصلاح، وأن يُلبَّس عليهم دينهم، فيُدعى إلى تعظيم القبور، وإحياء المواسم المحدثة، والغلو في الصالحين، حتى تصير عند بعضهم من شعائر الدين، وهي في حقيقتها مناقضة لأصل الدين.

فالواجب على المسلم أن يلزم هدي الكتاب والسنة، وما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم، فإنهم أعلم الأمة بدين الله، وأشدهم تعظيمًا للتوحيد، وأبعدهم عن مسالك الشرك والبدع.

قال الإمام مالك رحمه الله: [لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها] (ذكره الشاطبي في الاعتصام).

فالنجاة كل النجاة في تحقيق التوحيد، وتجريد العبادة لله وحده، والحذر من الغلو والبدع، فإنها أبواب الشرك ومداخله، نسأل الله أن يبصّر المسلمين بدينهم، وأن يحيي قلوبهم بالتوحيد، وأن يجنبهم الفتن ما ظهر منها وما بطن، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.